معبر "الكفاءات"

(النهار، ١٩٨٥)

أسرُّ وأغْتبط لدى سماعي أن معبر "الكفاءات" أعدّ للسير والمرور. ولكنني أريده نافذًا في أكثر من تِراب، يأخذ لبنان والإنسان في لبنان إلى المواطئ التي أحلم بها لهما.

فهو أرض لقاء. ومكانة مقدّس. على النِّعال أن تُنزع خارجه وتطأه الأرجل برفق وخشوع. عين الله تُداعب ثراه. وفي بؤبؤ هذه العين لاقى بعض صغار الأرض مسكنًا. هو هيكل تسابيح إذ الإنسان المعذّب مدعو فيه لراحة وعيد. والله، ذاك الذي من لحم دم، هو معنا هنا في فرحة عرس لا تنتهي. ذلك أننا وجدناه حيث يطيب له أن يكون، في دفء الأخوّة الفاعلة والمشاركة الحيّة.

وإذا كانت "الكفاءات" أرض تلاق مع الله، فلأنّها فسحة لقاء بين البشر. الألم هو الجامع الأقوى. التّكامش مع القدر هو المحرّر، وهو العروة الوثقى. أخي هو صاحب الصّدر الذي يخفق فيه قلبي، وترتعش بدورها مفاصلي لأنّاته العميقة. أيُّ رباط أشدّ من الذي يضمني إلى الضعيف أبنيه في بهاء الإنسان أعطيه زندي فيكبر به قلبي، ونترافق معًا إلى الذي أحبنا بلا حساب، وبلا حدود.

حقيرة هزيلة أنت يا سواتر مهما علا شأنك، أكنت من تراب أرض، أم وحل قلوب، أم بشاعات فعل بشر في مأتم إلهٍ قتله الوحش فينا. صغيري بسيط الفهم يهزأ منك، لأن بيني وبينه ما ليس من دُنياك. أو تظنّين نفسك تقوين على ضربة عكازٍ من الأشلّ الذي درّبتُه على تسلّق سفوح الحياة؟

وكيف لا يكون معبرًا سالكًا مذ أقمته على رجاء اللقاء البهي، لكل ضعيف منّا، مع الإنسان الجبّار فينا والقابع في الزوايا الرتيبة من حياتنا الهشّة. صرفت عمري أبحث في صدر كل مرذول آتٍ حليّ عن بركان هائل هو في غفوة عنه. فوجدت القداسة في أشدّ الساقطات. ووقفت مبهوتًا أمام مقدرة الأضعف على إزاحة الجبال. وتجلّى لي الناصري إلهًا وهو يبكي. في الإستقواء فقط عاينت الضعف. وفي الغنى المنكمش لامست حقيقة الفقر. وبكيت العفّة في القلوب الملطخة الجوفاء.

معبري إلى الله يهزأ بكل مصطنع. لن تقوى عليه أبواب الجحيم ولو طغي الأرض العمياء على هذا الجسد البالي. هي المِخرز الجاهل وأنا العين المدركة. أنا الحياة الفاعلة والله شريكي. فممن أخاف؟

يبقى أننا نسعى عبر معبر "الكفاءات" إلى إطلالة حضاريّة إزاء معضلة شائكة تقلق من به شغف بالإنسان. مسعانا هو نقلة نوعية تجعلنا في مستوى العصر، نحاكي أبناءه ونتفاعل في حضارة وجب أن يكون لنا فيها كلمة ومساهمة. فمن الطبيعي أن نتكامش مع ما هو من بقايا البارحة. وأن يعنف على "الكفاءات" ما هو من روح الأمس. وأن لا يفهم مقصدها. فتُصفع إطلالاتها المرة تلو المرة. هذا جزاء ارتضته. المهم أن يبقى معبر إرادتها سالكًا. وأن يكون ما يصيب هذا المعبر حافزًا لتمتدّ رسالتها ويقوى نبتُها في الأرض.

على أني أردت من "الكفاءات" أن تكون أكثر من مجمّعٍ تأهيلي لمصابين في البنية والمقام. هي مصغّر لما أحلم به للإنسان الجريح ولبنان المعاق في محيطه، وفي عالمٍ جافٍ ينمو ويمتد كالفطر على حساب الإنسان الحق وبراءة الطفولة فيه.

ففي سعينا المسؤول نحو المرذول الضعيف، نكتشف الله ونهتدي إليه. مأساة الله الكبرى في هذه البقعة من العالم أنّه سعى إلينا، فاكتفينا لملاقاته بترانيم شفاه ومظاهر مغلّفة بسواتر. الله حزين في ربوعنا لأننّا لا نجده في هيكل الإنسان. فإذا ما جهدنا ووصلنا إليه عبر الإنسان المهشّم وفي رفقته، أعطينا بلدنا بعد الله الحقيقي، وأخذنا صقاعنا في منحى التوحيد.

أين نحن من المعنى الوجودي العميق لله الواحد، المحب، الجامع، ومن المحمديّة الصافية المعانقة المسيحية، والإنسان الضعيف أساسهما هو ضحيتنا الكبرى؟ في التزامنا الصادق بقضايا الإنسان المرذول، نجعل الرَّديفَين في التوحيد يلتقيان في الله الواحد، نقيم الله من الأوحال التي نشدّه إليها. وتعمّ فرحة اللقاء.

وفي القيامة المرجوّة تعلو من جديد القيم الروحيّة التي تضع في صدر عالمنا قلبًا يخفق، وتعطي لبنان منحى أخلاقيًا تناديه أعماقنا بحسرة وشغف. نحن في حاجة إلى أخلاقية جديدة نبني الغد على أساسها. ويكون الإنسان الجريح خير دعامة لها. خاطئ من يظنّ أن حاجتنا ÷ي إلى مداميك تعلو. الأخلاق تأتي بالمداميك وليس العكس. المداميك تزول، كما وجِدَت، ما لم تبنَ على منعة الأخلاق وعلو المناقب.

وفي ما أرشدت إليه "الكفاءات" أن الطاقات الإنسانية تقوى عبر تكاملها في سمفونيّة الحياة، دعوة لوعي الحاجة إلى الترابط والتكامل بين أفراد العائلة اللبنانية. وتشعُّب الطرق إلى الحقيقة يُعطيها وهجًا وعمقًا. باهتة هي الحقيقة المتّصلة بطريق واحدة. الوحدة هي في التلاقي وتكامل الفرادات، وليس في اغتصاب الواحد للآخر. وحدة الحياة تتجلّى في صغار الأرض ومنبوذيها وهي ليست بالتأكيد بيد أباطرتها. طوبى لبسطاء العقول الذين يتناغمون ودفقها العارم. لا نصل إلى الله في انغلاق بعضنا على بعض. نكون من مملكته، فيحيا فينا وبيننا، بقدر ما نتلاقى في فرحة الأخوّة المسؤولة.

وكما وجدنا أن لا حدود لكفاءة الإنسان مهما بدت واهية وضعيفة، كذلك ليس من حدود لطاقاتنا الجماعية الذاتية في مجالات البناء والإبداع. وهي حقيقة علينا أن نعيها ولبنا مُقبل على ورشة تعمير وازدهار مهما طال انتظارها. العالم لا يحبّ المتسكعين، ووجب أن لا نكون منهم. وإذا ما أتانا العالم مساعدًا، فلنقبله في مشاركة إنسانية، لا متصدّقًا بفُتاتات محقِّرة ومعيقة لما في شعبنا من أصالة وعزّة.

ويجب أن لا ننسى يومًا أنّنا إذا ما حدّدنا لبنان بمساحة تقاس وأعداد تُجمع، نغدو حفنة ضائعة على هامش البشر. لبنان هو إطلالات. عرفه العالم بنبوغ أعطاه. لبنان المُعاصر الذي نريد هو لبنان جبران، وكامل الصبّاح وفيليب حتّي وناديا تويني وسواهم. هذه الإطلالات هي ما يريد العالم منا، وهي ما يحتاجه. رسالة لبنان هي في الإبداع. به يكون، أو لا يكون!

أملي أن يكبر "معبرنا" ليغدو منفذ الإنسان فينا إلى عمق الأصالة، ويذهب بلبنان إلى مواطئ أحلامنا الكبيرة الكبيرة. وهي غايات أضاعها التَبَعثُر الحاصل، ولكن تدلّ إليها أصابع الصغار الذي يسكن الكبر في طيّات أوجاعهم، وفي فسحات الرّجاء الوسيعة في قلوبهم.